مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلاّ على الظالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وإخوانه النبيين ودعاة الحق أجمعين، وبعد.

فإن الأزهر قد قام بمهمته العلمية الدينية، وخصّه الله تعالى بأعلى المكانة وأحسن القول؛ وصدق الله العظيم ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ سورة فصلت (الآية ٣٣) وصدق رسوله الكريم: «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين» واحتل مكانته فى العالم الإسلامى منذ تحمل تلك الرسالة فى عهد صلاح الدين والعهود التالية حتى الوقت الحاضر، وأصبح المرجعية العلمية والدينية لأهل السنة والجماعة عن جدارة واستحقاق.

ومازال التاريخ يحفظ أسماء الأعلام من رجاله وخريجيه فى سائر العلوم الدينية كالحافظ ابن حجر العسقلانى، وابن عابدين السيراسى التركى، والحافظ السيوطى الذين احتضنهم الأزهر على اختلاف أصول منشئهم، وبوأهم أعلى الأماكن وبلغ بهم أرقى مراتب الاجتهاد. ورسائل المسلمين. واستفتاءاتهم فى أنحاء العالم الإسلامى فى آسيا وإفريقيا ما تزال باقية مع إجاباتهم عنها إلى اليوم، وبها حافظ الأزهر على تلك المكانة فى عصور العهد التركى، وبقيت القاهرة بفضلهم عاصمة ثقافية للعالم العربى بل للعالم الإسلامى. وبالرغم من ضيق نطاق الحركة الثقافية فقد لمعت أسماء اللقانى، والدردير، والأمير، والباجورى، والمناوى، والدمنهورى، والشرقاوى، والجبرتى، الذين

أدوا واجبهم وصار بعضهم أشبه بالزعيم الشعبى منهم بالمفتى الدينى المقتصر على مهمته الدينية فحسب. وقاد العلماء حركة المقاومة ضد نابليون وحملته الاستعمارية واستشهد منهم الكثيرون حتى دخلت الخيل الأزهر ولكن الغزاة اضطروا للرحيل بعد أقل من ثلاث سنوات.

فلما جاء محمد على كان عمر مكرم وإخوانه عونًا له، ومع أنه حاول الاعتماد على بعض العناصر والمؤسسات الأخرى إلا إن أكثر البارزين فى مجالات الهندسة والطب والثقافة كانوا فى الأصل أزهريين، وأسسوا لحياتنا المعاصرة وللنهضة التى انتظمت المجالات المختلفة فى العهد العلوى، ويكفى ذكر أسماء العطار، والطهطاوى والزعيم الوطنى عرابى، وعبد الله النديم، والإمام محمد عبده وكلهم أزهريون قادوا النهضة الفكرية والوطنية وبذلوا النفس والنفيس فى سبيل الله والوطن. وكان العلماء الشهداء فى مواجهة المحتل الإنجليزى امتدادًا لإخوانهم الذين قتلهم المحتل الفرنسى من قبل، وتوطئة لشهداء ثورة ١٩ الذين أكدوا مكانة الأزهر فى قلب الحركة الوطنية التى قادها الأزهرى سعد زغلول تلميذ الشيخ محمد عبده، وصار مسجد الأزهر مثابة للثوار من جديد، ومنبر الوطنيين من مسلمين ومسيحيين، وهذا هو قدر الأزهر ورجاله على رغم تضييق بعض الحكام عليهم وتهميشهم لهم..

ولكن الذين عاشوا خارج مصر يعرفون مكانة الأزهر فى العالم وأن منهم رجاله الذين يمثلون الوسطية للإسلام ودعوته على هدى وبصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة موضع التقدير والترحيب من العالم أجمع.

وفى القرن الأخير كانت القيادة بعد الشيخ محمد عبده للشيخ سليم البشرى والظواهرى ومحمد شاكر ومحمد بخيت والمراغى ومصطفى عبد الرازق وعبد المجيد سليم وأبى العيون ثم بعد ثورة ١٩٥٢ للشيوخ الأكارم عبد الرحمن

تاج والخضر حسين ومحمود شلتوت وعبد الله دراز وعبد الحليم محمود الذين ازدانت بهم مصر والعالم ولن يلبث أن يعقبهم أبناؤهم المجاهدون كشجرة تؤتى أكلها كل حين بأذن ربها، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

استوعب الدكتور سعود- أسعده وأسعد به- هذا التاريخ العريق، وعايش مواكب الشهداء والمجاهدين، وتابع حياة هذا المعهد الشريف ورجاله الأبرار، وشيوخه الكبار، وسجل مواقفهم فى كل هذه العصور، ومشاركتهم الشعب بل قيادتهم له فى أيام الهول والمحن، وذاقوا طعم الموت والنفى والمطاردة فى سبيل الحق والمثل العليا بل لم يفته موقف الأزهريين من غزوة فريزر الفاشلة فى مطلع القرن التاسع عشر.

والدكتور سعود هو أستاذ بجامعة عين شمس، فليس بالأزهرى ليرمى بالتعصب أو المبالغة والانحياز، لكنه مثقف مصرى يفيض وطنية وإيمانًا بمزايا هذا الشعب المؤمن الذى قدر الله له أن يظل فى رباط إلى يوم القيامة، فحفظ فى ضميره ذلك الدور الرائع للعلماء المجاهدين فى صدارة هذا الشعب، وفى قلب الأحداث الدينية والوطنية التى مرت به، وحاول تسجيله موضوعيًا فى هذا الكتاب.

ربما يكون الدكتور سعود قد أفاض أكثر من المتوقع فى الكلام عن توجهات ثورة يوليو أو بالأحرى قائدها جمال عبد الناصر الذى تراوح موقفه من الإسلام بين عناية وإهمال، واستعانة وإغفال، ولكنه بسياسته العملية وقراراته الاشتراكية فى تأمين أوقاف الأزهر، وكانت معتمدة فى الاستمرارية التاريخية، وفى إصداره قرارات القضاء الشرعى وتوحيده مع القضاء المدنى دون إعداد علمى أو عملى، ثم إصداره فى ليلة واحدة من مجلس الأمة الموحد

قوانـين تطوير الأزهر- التى مهما حسـنت فيها النية- كانت إملاءً علويًا لا تطورًا أزهريًا طبيعيًا، ويبين كيف حدّت هذه الإجراءات من استقلال العلماء وقلصـت عمليًـا دور الأزهـر، ولم تحقق الهدف المثالى وهـو تخريج الداعية الطبيب والمهندس الذى يعيش فى غابات إفريقيا ومجاهل استراليا داعيًا إلى الإسـلام كما يفعل المبشـرون بالأديان الأخرى. لقد كان الهدف من التطوير إعطاء الدولة سـيطرة أكـبر. وهو الأمر الذى أحسّ بـه الأزهريون من بعد، وقاوموه فى صمت، ولكن الشيخ عبد الحليم محمود حاول عمليا الحدَّ منها، واسـتخدم الشعور الشعبى ومكانته الخاصة فى توسيع دائرة المعاهد، وتعظيم الوجود الأزهرى فى الحياة المصرية.

علـى أن الدكتور سـعود لا يغفل أن يسـجل مواقف العلمـاء الذين أيدوا قوانين التطوير بل أشـادوا بها وكيف أن عبد الناصر شـخصيًا لم يقصر فى دعم الأزهر ماليًا، وتوفير الميزانيات الكافية لهيئاته المختلفة. وإن كان يقارن بينـه وبين موقف محمد على من قبل فى دوره المزدوج من الأزهر والأزهريين فى اسـتخدامهم لصالح النظام والحد من نفوذهم فى الوقت نفسه؛ وليخلص إلى رأيـه فيما انتهى إليه أمر هذا التطوير فقد تضاءلت فى ظله حرية الأزهر واستقلاله.

وبعـد أن يبين المؤلف التغيير الذى طرأ على الأوضاع الأزهرية فى عهدى الرئيس السـادات والرئيس مبارك يخصص المؤلـف الجزء الأخير من كتابه لشـيوخ الأزهـر منذ سـنة ١٩٥٢م، مركزًا نوعًـا ما على مواقفهـم وآرائهم السياسـية، ومنوهًا بوجه خاص بالشيخيين عبد الحليم محمود وجاد الحق وكيف تعاظم دور الأزهر الخارجى وتحرر أحيانًا من الموقف الرسمى، ويبين كيف انعكس كل أولئك على المعاهد الدينية التى شـهدت توسـعًا ملحوظًا،

وعلى جامعة الأزهر التى أصابت تطورًا عظيمًا وعلى وجه الخصوص الطلاب الوافدين. ومن أن المؤلف الفاضل كان يتتبع الحياة الرسمية للأزهر وشيوخه فى ظل العهود المختلفة فإنه ربما كان من المناسب- كما لاحظ فضيلة الشيخ مصطفى عمران فى تصديره الجميل- أن يتعرض لشيوخ كالذين أشرت إلى أدوارهم فى مطلع هذه المقدمة ورفعوا لواء القرآن والدعوة، ولم يتولوا مشيخة الأزهر كالشعراوى والغزالى- رحمهم الله- وغيرهم كثير وهو ما تفضل المؤلف بالإلماح إليه فى مطلع عمله.

ويعود المؤلف فى ختام كتابه ليتعرض مرة أخرى لقانون تطوير الأزهر وتفاوت الآراء حوله وحول الدوافع المؤدية إليه، ويسجل رأيه الشخصى فيما انتهى إليه القانون من الناحية العملية بصرف النظر عن الاعتبارات النظرية وهو رأى يميل إلى السلب.

لكن صدور الكتاب بالنسبة لنا كأزهريين، وبالنسبة للمشتغلين بالشأن الوطنى، وبالشأن الدينى فى مصر، وشئون التعليم الدينى بوجه خاص يعد من أشد دواعى الرضا والثقة فى مستقبل هذه الجوانب الأصيلة فى حياة هذا الشعب ومن دواعى الاطمئنان إلى واقع هذه المؤسسة العريقة بالغة التأثير فى حياة العالم الإسلامى بوجه خاص والعالم بوجه عام ومن ثم فنحن نهنئ الدكتور سعود بإصداره، داعين له بمزيد التوفيق فى مسعاه الإصلاحى النبيل، وله من الله المثوبة والأجر الجزيل إن شاء الله وهو سبحانه يقول الحق وهو يهدى السبيل.

بقلم أ. د/ حسن الشافعى
أستاذ بكلية دار العلوم وعضو مجمع اللغة العربية

توطئة

يمثل هذا الكتاب محاولة لرسم صورة مجملة لهذه القلعة العتيدة: الأزهر، ورجالهـا، منذ أقامها القائد جوهر الصقلـى بعد فتحه مصر، إلى يوم الناس هذا، فثابرت على مر العصور، تصاول الزمان وتغاوره.

ونحن هنا لا نعنى بشـيوخ الأزهر من تسنموا سدة الجامع فحسب، وإنما نعنى بهذه المفردة كل من درس وتخرج فى هذه القلعة الشامخة.

وقـد أدت هذه القلعة خدمات جليلة للإسـلام والمسـلمين فى كل أرجاء الدنيا، وبهذا غدت بالنسبة لأكثرهم- لا مرية- أعز مكان دينى وأسماه بعد الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى.

وحاول كثير من الساسة استغلال القلعة. وهنا تتقاضانا الموضوعية، وبمنأى عن العواطف، أن نقول: إن كثيرًا من رجالها وقف صامدًا شـامخًا، متعاليًا علـى الترهيـب والترغيب، لكن بعض رجالها لم يكن علـى نفس القدر من الصلابة، والشجاعة، والتسامى فى مواجهة الطغيان.

ولا أحسبنا نبالغ أو نتزيد إن قلنا إن الأزهر كمؤسسة لعب أخطر دور فى تاريخ مصر، بل وأكاد أقول فى تاريخ الأمة العربية. فيه تعلم أو تخرج زعماء الشعب ومصلحوه الخالدون: محمد عبده، وعمر مكرم، وأحمد عرابى، وسعد زغلول. فمنذ التاريخ السـحيق كان لعلمائه الأفذاذ مواقف لا ينساها الزمان: فها هو ذا العز بن عبد السـلام سـلطان العلماء فى زمانه، يقف من المماليك موقفه الذى طبق الآفاق: فيصر على عرضهم للبيع، باعتبارهم ملكا لبيت مال المسلمين، حتى قيل عنه: بائع الملوك!

وحينمـا تنتفض مصر بقيادة أحمـد عرابى الزعيم الريفى، وتثور بتوفيق، ويسـتصدر الخديو فرمانًا سـلطانيًا بعزل عرابى مـن منصبه بالجيش، يلجأ عرابـى إلى علماء الأزهر، فيصدرون فتـوى بالغة الجرأة: «إن الخديو توفيق خائن لدينه ووطنه، وقد مرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية!!..!».

وفى الحرب العالمية الثانية يقول الشيخ المراغى رحمه الله «إنها حرب لا ناقة للمسلمين فيها ولا جمل»، فيثير ثائرة الانجليز وأعوانهم.

وهذا هو الشـيخ عبد المجيد سـليم، غفر الله له، يقول كلمته التاريخية، قاصدًا بها الملك فاروقًا فى أسـفاره، متعجبًا: «تقتير هنا، وإسراف هناك!» وإذ يلـوح له بعضهـم بالعزل، فيقول: «أيمنعنى ذلك مـن التردد بين بيتى والمسجد؟» قيل: «لا». قال: «فلا أبالى بعد ذلك بما يكون!».

وهذا هو الشـيخ محمد الخضر حسين، رحمه الله، يقول كلمته المشهورة: «إن لم يزد الأزهر فى عهدى، فلا ينقص منه!».

لكن الأمانة تلزمنا أن نقرر، كما قلنا، أنه كان هناك من الشيوخ من خالف عن هذه السيرة!

ولأن مـا صلـح بالأمس قد لا يصلح اليوم، وما يصلـح اليوم قد لا يكون صالحًـا للغد، فقد تناول المصلحون والسياسـيون مواد الدراسـة بالأزهر- كجامعـة- بالتطوير غير مرة، ومازال التطويـر اليوم مطلوبًا، فليس معقولًا كما يقول الدكتور يوسـف القرضاوى فى كتابه: «رسـالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد- بمناسـبة الاحتفال بعيده الألفى» أن يتخرج طالب فى الأزهر لا يعـرف زكاة الأسـهم أو المصانع أو العمـارات ونحوها، فى حين يحفظ زكاة الإبـل، ومـا فيها من بنت مخـاض، وبنت لبـون، وحقة، وجذعة وليس فى بلده إبل سائمة قط! ولا يجوز أن يتعمق دراسة كتاب "الرقيق"

والعتق، وما يتبعه من أبواب: المدبر وأم الولد، والمكاتب ونحوها. وقد ألغى الرق الفردى كله. على حين يجهل أعمال المصارف (البنوك)، وشركات المساهمة، والتأمين، ونحوها. علينا أن نصل طالبنا بالواقع ونربطه بالحياة، على معنى أن ندرس حكم الشرع فىواقعنا، لا فى واقع من سبقونا، ونجيب عن الأسئلة التى يطرحها عصرنا، لا عن أسئلة طرحها من قبلنا، ولم يعد لها وجود بيننا.

وفى الحق إن العرض الكامل لموضوع الكتاب لا تفى به مجلدات ومجلدات، لكننى آثرت أن يكون حجم الكتاب فى متناول أغلب القراء، فحال ذلك دون الحديث- إلا من بضع عبارات متناثرة هنا وهناك عن مشايخ عظماء فى الطليعة منهم الأساتذة الأئمة: العز بن عبد السلام، سليم البشرى، محمود شلتوت، محمد عبده، حسن العطار، عبد الحليم محمود، محمد الفحام، عبد المجيد سليم، محمد المراغى، رحمة الله عليهم.

وقد كان أكثر اعتمادنا فى هذا الكتاب على السفر الموسوعى الهائل بجزئيه: «الأزهر جامعًا وجامعة» للدكتور عبد العزيز محمد الشناوى، ثم على كتاب « الدين والدولة والثورة» للدكتور رفعت سيد أحمد، وكتاب «دور الأزهر فى السياسة المصرية» للدكتور سعيد إسماعيل على، وعلى «تقرير الحالة الدينية فى مصر» الصادر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، واقتباسنا منها.

لكن كان من دواعى العجب والأسف أن وجدت فيما أورده «تقرير الحالة الدينية فى مصر» أخطاء معيبة فى تواريخ تولى بعض مشايخ الأزهر، يسهل جدًا الوقوع عليها، فضلًا عن أخطاء فى بعض أسمائهم، بينما يورد التواريخ صحيحة، مبرأة من كل خطأ، لا تجد فيها عوجًا ولا أمتًا (!) مؤلف

أجنبـــى، لا ســـبيل إلى موازنة إمكانات المؤسســـة الكبرى، هـــو بيارد دودج BAYARD DODGE فى كتابه:

«AL AZHAR: A MILLENNIUM OF MUSLIM LEARNING»

الذى نقله إلى العربية الدكتور حسين فوزى النجار، رحمه الله، وأصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب فى مجموعة الأعمال الدينية من مكتبة الأســـرة سنة ١٩٩٧.

وكانـــت أن ظهـــرت صورة أولية لهذا الكتاب قبل ســـنوات، لكننى زدت هنا فى أغلب فصوله، فكانت الزيادة فى: صدر الخبر- الخلفية التاريخية: الأزهر فـــى العصر الفاطمى، الأزهر فى العصـــر المملوكى، الأزهر إبان الحكم العثمانى، الأزهر فى عصر محمد على، الأزهر وثورة يوليو وما بعدها. وأضيف إليه فصل جديد هو: موقف الأزهر من حملة فريزر على مصر.

وعلى الله قصد السبيل

محمد عبد العظيم سعود